الزواج ســـــنة ١٩٤٨

لعل هذه البدعة التي أنا محدثك عنها قد سلف بها الزمن ، ولكني لم أهتد إليها إلا أمس وأنا جالس في ركن من أركان مقهى هادىء جميل أحسب أن أصحابه أعدوه لمن ينشد الهدوء ، وإن كان يقصده أكثر من يقصدونه طلباً لهذا الهدوء ولشيء آخر أظنه عندهم أحلى من الهدوء وأمتع . .

جلست وحدي منكدر الخاطر بما ينعكس على ذهني من هذه الوحدة ... ودرت ببصري وفي عيني شيء من آثارهم ، أدراً السأم عن قلبي ، وأنفض الخواطر الكابية عن ذهني ، فانقلب إليّ البصر محزوناً ؛ فما يخلو ركن من رفقة ، وقلما رأيت شاباً إلا ومعه صاحبته أو زوجه ، ولم يكن هناك من يجلس مثلي وحيداً إلا اثنان أو ثلاثة لعلهم كانوا ينتظرون من يؤنس هذه الوحدة ...

البهو هادىء على كظته ، خال مما يحدث الضجيج والصخب من أدوات اللعب ، والمقاعد منسقة تنسيقاً جميلا ، والندل يجيئون ويذهبون بما يشرب أو يؤكل في خفة وفي هيئة تغري بطلب المزيد ، والضحى دافىء ضاحك ، والوجوه كلها مستبشرة مطمئنة ، وأنغام الموسيقى يصغى لها من يصغى ويصفق لها من يصفق ويلهو عنها بالحديث المذب من يلهو ، وأنا وحدي على حالي من السأم والضيق وانكدار الخاطر .

وجاء رفقة من الشباب فتحلقوا حول منضدة غير بعيد مني ، وأخذوا يتحدثون ويضحكون ، وما فيهم فيما أرى من هو دون الثلاثين ولا من يزيد على الأربعين ؛ وكان بينهم فتى يبدو لأول وهلة أنه روح الحلقة ، ففي وجهه وإشاراته وحركاته ما ينطق بخفة روحه ، وفي ضحك رفاقه من كل كلمة يقولها ما يدل على أنه فارسهم المعلم ..

وتشعق الحديث بينهم في غير نظام حتى مال الكلام إلى الزواج فسأل واحد منهم : لم كانوا جميعاً أعزاب ؟ وإلام يظلون على هذه الحال ؟ ورد أحدهم قائلا في لهجة المتحمس : « ينحصر ذلك في أمر واحد هو عندي علة العلل ، فإن بعض أسرنا وبخاصة ما يسمونها الأسر الراقية والأسماء قد أخذت ببعض التقاليد الأوربية التي تنبو عن روحنا الشرقية ، فاندفع بناتنا إلى ما يعد في الغرب من مألوف الأمور ، وما يعد في الشرق مهما خادعنا أنفسنا من التدهور الخلق والفوضى والأباحية ، ولما انطلقت الأوانس من بعض القيود أغراهن ذلك بما سمينه حرية فانزلق أكثرهن حتى وقفن على حافة الهاوية وسقط بعضهن فعلا ، وأعرض الشباب أو أقدموا ثم ما لبثوا أن طلقوا ... »

وضاق فارس الحلقة بهذا الجد فقال لصاحبه : « دعنا من هذه الفلسفة : المسألة أن الزواج الآن زواج منفعة أيها العبيط ؛ فأكثر الشباب يطلب الزوجة ومعها الدرجة ، والدرجات أيها العبيط لا يملكها إلا الحزب الحاكم ، وعلى ذلك فهذا يطلب عروساً وفدية إذا كان الوفد في الحكم ، وآخر يطلبها سعدية إذا كان السعديون هم الحاكمين ، ويحرص غير هذين وهو أمهر منهما أن يأتي بها وفدية الوالد سعدية العم دستورية الخال كتلية الأخ ، وأمهر من هؤلاء من يأتي بها إنجليزية فتغنى عن الجميع على قاعدة ألمانيا فوق الجميع ، ومن هذا صعب اختيار الزوجة ياعبيط »

وضحك الرفاق وقال أحدهم « مثال ذلك أن فلاناً يطلب يد ابنة فلان باشا ولكنه يشترط على أبيها الدرجة الثالثة » ... وضحك الفارس وقال : « قل لأبيها أنا أقبل بالرابعة ».

وعاد الفيلسوف يقول : « أف لمن يطلب المال والدرجات ! الجمال هو كل شيء » وقاطعه الفارس قائلا « والخلق يا حضرة الفيلسوف » وقال الفيلسوف « والخلق بالضرورة » فقال الفارس يقلد لهجته متهكما ، يظهر أنك تصنع العروسة على يدك : جمال وخلق ! وأين ذلك وقد وصفت العصر بما وصفت ؟ » .

والتفت الرفاق والتفتُّ إلى فتاة كالزهرة فتحها الربيع : فهي نضرة وفتنة وعطر وسحر وشعر ... وقد وضعت كتابها على المنضدة وأخرجت إبرتها وغزلها وأعملت أناملها ، دون أن تنظر إلى أحد ... وسكن الشبان لحظة كأن على رءوسهم الطير ثم تخافتوا بينهم ، وقال الفارس فيما يقرب الهمس : « أتزوج هذه ولو ذهبت درجتي ومالي ... بلا قيد ولا شرط » وقال الفيلسوف « أنا معك ! أرأيت كيف يعلو الجمال على المال ؟ ولكن ... يا خسارة ! تأتي هكذا وحدها إلى المقهى ... من يدري ؟ » وآمن الرفاق بالجمال وقالوا نقبلها ولو كان أبوها طريد الأحزاب كلها » إلا واحداً منهم لم يتكلم قبل أبداً ، كان صهيوني الملامح والنظرة فهز رأسه مفكراً وقال « كلا لست معكم ! والله لن أقبلها إلا ومعها الدرجة »

الخفيف